

الكتاب المدرسي والوسائط التعليمية

محمد بن الحاج
أستاذ التعليم الثانوي التأهيلي
طانطان

مقدمة

منذ وقت ليس بالهين، سعت وزارة التربية الوطنية الوصية عن قطاع التعليم إلى إصلاح المنظومة التعليمية إيماناً منها بالدور الكبير الذي تلعبه المدرسة في تحقيق تربية جيدة وتنمية شاملة¹، ولجعل المنظومة التربوية قادرة على رفع تحديات العصر، وقاطرة للتنمية البشرية.

وقد جاء الميثاق الوطني للتربية والتكوين ليترجم هذه الرغبة الحثيثة، من خلال تبني فلسفة تعليمية جديدة تستجيب لمتطلبات التجديد المعرفي والبيداغوجي، تجسدت خطوطها العريضة في مجموعة من الدعامات الأساسية التي تطمح إلى تحقيق الجودة في التربية والتكوين وبناء الفرد والمجتمع على حد سواء.

على أن هذه الفلسفة لم تبق حبيسة التصور النظري، بل كان من اللازم ترجمتها إلى فعل من خلال البرنامج الاستعجالي الذي يسعى إلى تطبيق مقتضيات الميثاق الوطني وأجرائها، وتسريع وتيرة الإصلاح، وتجاوز الاختلالات والأعطاب بتبني مشاريع كبرى تروم إعطاء نفس جديد للمنظومة التربوية عبر تجديد مقرراتها وبرامجها ومناهجها، وتطبيق مجموعة من المقاربات الديدانكتيكية والفلسفات البيداغوجية والمراهنة على استثمار الرأسمال البشري، وجعل المتعلم في قلب منظومة التربية والتكوين.

ومن جملة العناصر التي استأثرت باهتمام بالغ، نجد الكتاب المدرسي الذي جاء الحديث عنه في سياق إصلاح المنظومة التربوية بشكل عام، حيث طرحت هذه القضية في الدعامة السابعة المتعلقة بمراجعة البرامج والمناهج والكتب المدرسية والوسائط التعليمية من المجال الثالث المعنون بـ «الرفع من جودة التربية والتكوين»، في القسم الثاني من الميثاق الوطني للتربية والتكوين المتعلق بمجالات التجديد ودعامات التغيير².

1- تعريف الكتاب المدرسي

غالباً ما تستعمل لفظة الكتاب مقرونة بوصف «المدرسي» تمييزاً له عن باقي الكتب المعرفية والثقافية الأخرى الموجهة لشرائح وفئات مختلفة من القراء والمتلقين. فما المقصود بالكتاب المدرسي؟ وما هي مواصفاته ومرتكزاته؟ وما هي الفئة التي يستهدفها؟ وهل يستجيب الكتاب

1- العربي السليمان، المعين في التربية، مرجع لامتحانات المهنية والكفاءة التربوية ومباراة التفتيش، مطبعة النجاح الجديدة، البيضاء، طبعة: 1430-2009، ص: 13.

2- الميثاق الوطني للتربية والتكوين، المملكة المغربية، اللجنة الخاصة بالتربية والتكوين، الرباط، 8 أكتوبر 1999، ص: 47.

هدفان التربية والتكوين

المدرسي، في صورته الراهنة، لطموحات المتعلم وانتظاراته؟ وما هي المكانة التي يحتلها ضمن الوسائط التعليمية الأخرى؟

تلك أسئلة وغيرها تطرح نفسها في هذا المقام، لأن الإجابة عنها من شأنه أن يسלט الضوء على بعض الجوانب الغامضة في هذا الموضوع، ويحفز على مزيد من البحث والتنقيب.

رغم تعدد تعاريف الكتاب المدرسي وتنوعها، فإنها تجمع على جعله أحد الدعائم الأساسية في العملية التعليمية - التعليمية. فقد عرفه «المنهل التربوي» بكونه «الوعاء الذي يحتوي المادة التعليمية التي يفترض فيها أنها الأداة، أو إحدى الأدوات على الأقل، التي تستطيع أن تجعل التلاميذ قادرين على بلوغ أهداف المنهج المحددة سلفاً»³، وهو أيضاً الوسيلة التي تضم بكيفية منظمة المواد والمحتويات ومنهجية التدريس والرسوم والصور؛ إنه هو والمدرس المصدران الأساسيان للمعرفة. وعرفه «باسكال غوسان» قائلاً: الكتاب المدرسي الورقي يطرح محتوى المعارف التي ينبغي على التلميذ أن يكتسبها في مجال تعليمي مرتبط بمستوى معين. والكتاب المدرسي يقترح دروساً تترافق مع وثائق وصور، خطاطات، خرائط، نصوص، إحالات ببيولوجرافية... وهذه الوثائق تصاغ حصراً أو تستنسخ لهذا الغرض. ويضم الكتاب المدرسي كذلك تمارين تسمح بتقويم مكتسبات التلميذ، ويعتمد على إجراءات ديداكتيكية خاصة⁴.

وبالجملة، يعتبر الكتاب المدرسي أداة تعليمية أو وسيلة تربوية من أهم الوسائل التعليمية ضمن عناصر المناهج الدراسية؛ فهو تفصيل وتوضيح عملي لما يقترحه المنهج، ومساعد قوي في إكساب المتعلم الحقائق العلمية المنظمة، ووسيلة في يد المدرس لتنفيذ المقررات الرسمية بمستواها ومحتواها المحددين. وهو إلى جانب هذا وذاك من أكثر الأدوات التعليمية استخداماً في المدارس، ويعد ركيزة أساسية للمدرس في العملية التعليمية؛ فهو يفسر الخطوط العريضة للمادة الدراسية وطرق تدريسها. إنه يتضمن المعلومات والأفكار والمفاهيم الأساسية في مقرر معين، كما يتضمن القيم والمهارات والاتجاهات الهامة المراد توصيلها للتلاميذ⁵.

ولما كان الكتاب المدرسي يؤدي دور الوسيط بين التلميذ والمادة والمدرس، ويشكل إحدى الركائز الأساسية التي قامت عليها فلسفة الإصلاح، فقد كان من اللازم البحث عن مواصفات جديدة للكتاب المدرسي تتجاوز النمطية التقليدية، وفلسفة الكتاب الوحيد الذي كان معمولاً به في النظام التعليمي القديم، وترتقي إلى انتظارات المتعلم وتلبي طموحاته وميوله وحاجاته النفسية والوجدانية والاجتماعية والفكرية والمعرفية في مختلف الأسلاك التعليمية. فهل يستجيب الكتاب المدرسي الحالي لهذه المواصفات؟

3- عبد الكريم غريب، المنهل التربوي - معجم موسوعي في المصطلحات والمفاهيم البيداغوجية والديداكتيكية والسيكولوجية - منشورات عالم التربية مطبعة النجاح الجديدة، البيضاء، ط: 2006. ج 2، ص 575.

4- سعيد أراق الكتاب المدرسي: أي قيم؟ لأي تلميذ؟ مجلة علوم التربية، العدد 40، السنة 2009، ص: 111.

5- الاستعمال الوظيفي لكتاب اللغة العربية - المنهاج الجديد - مقال مرقون للأستاذ محمد حمسك المؤطر التربوي بجهة كلميم - السمارة، ص: 1.

2- مرتكزات الكتاب المدرسي ومواصفاته

لاشك أن الكتاب المدرسي عرف في السنوات الأخيرة نقلة نوعية؛ سواء من حيث المادة التي يحتويها، أو من حيث تنظيم هذه المادة وطرق تقديمها للمتعلم، حيث وضعت مجموعة من المعايير والمواصفات التي تستجيب لحاجات المتعلم الوجدانية والنفسية والاجتماعية والمعرفية، وللتغيرات الاقتصادية والاجتماعية والثقافية والمعلوماتية المتسارعة. ويمكن حصر هذه المواصفات في العناصر الآتية:

- مواصفات معرفية: تتجلى في جعل الكتاب المدرسي وسيلة لإكساب المتعلم المهارات وتنمية كفاياته وتربيته على القيم، وبناء معارفه الضرورية التي تقوم من خلال نظام المراقبة المستمرة، وتجعله قادرا على الاندماج في الحياة العملية.
- مواصفات اجتماعية: بأن يلبي طموحات الآباء وأولياء التلاميذ بشأن تصورهم لمقاصد التعليم وغاياته.
- مواصفات علمية وديداكتيكية: بأن تكون محتوياته وطرق بنائه قابلة للتنفيذ وتراعي السياق الزمني وظروف الأداء المهني، وذلك بتوظيف المبادئ والتصورات والطرائق الديدائكتيكية التي تيسر استيعاب التعلّات، الوضعية المسألة، الأنشطة الديدائكتيكية المتنوعة...
- مواصفات فنية وتقنية: تتعلق بتحديد المقاس وجودة الورق وعدد الصفحات وطبيعة الصور والرسوم وجودة الغلاف وطريقة التصفيف...⁶

إذا كانت جودة الكتاب المدرسي تقاس بمدى حضور هذه المؤشرات أو غيابها، فإن الناظر في كتب اللغة العربية المخصصة للسنة الثانية من سلك البكالوريا، بعين العدل والإنصاف، يجدها غير منصفة للتلميذ سواء من خلال محاور (وحدات، مجزوءات) تقادم عهدا واستنفذت بحثا وتنقيبا، لازلنا ننقل بها كاهل متعلم لا حول له بها ولا قوة، أو من خلال تضخم محاورها بشكل يجعل التلميذ ضائعا بين دروبها الملتوية، عاجزا عن تمثيل محتوياتها واستدخالها، فيستكين للراحة والتكاسل والخمول، أويصرف وكده وهمه إلى التشغيب وزرع بذور اليأس والإحباط بين عدد غير قليل من أقرانه ورفقائه. فأين هو مبدأ التخفيف؟

أما عن كتب المؤلفات، فأزعم - من خلال تجربتي المتواضعة في الميدان - أنها لا تتوافق والمستوى المعرفي للتلاميذ وقدراتهم الفكرية، إذ كيف يمكن أن يصير مؤلف من عيار «الظاهرة»، جعله صاحبه أطروحة لنيل أعلى شهادة جامعية، قضى خلالها سنوات طوالا في البحث والتنقيب والتشذيب والتهديب والتبويب حتى استوى على سوقه، أن نرغم تلامذتنا على قراءته وتمثل قضاياها الأدبية والنقدية، وفك رموزه ومغالقه، وقد شق الكتاب على غيرهم ممن هم أكثر دربة والماما ومعرفة؟

6- المملكة المغربية، وزارة التربية الوطنية والتعليم العالي وتكوين الأطر والبحث العلمي - المنتدى الوطني للإصلاح المكتسبات والأفق، الوثائق الكاملة وخلصات الأشغال، يوليوز 2005، ص: 131.

وفيما يتعلق بالكتاب المخصص للسنة الثانية من سلك البكالوريا (الشعب العلمية)، فإننا لمسنا، في هذا المقام، تبرم التلاميذ وامتعاضهم من بعض المحاور المخصصة للمجزوءة الأولى والمجزوءة الثانية المتسمة بطابع العلمية والتقريبية الجافة في حين وجدناهم يجنحون إلى المحاور الأدبية ذات الطابع السردي الحكائي.

وإذا تجاوزنا المادة العلمية وطرق تبويبها والأخطاء المطبعية والمعرفية والمنهجية التي وجدت فيها مرتعا خصبا، نجد أن أثمان هذه الكتب لا تتناسب والمستوى الاجتماعي للأسر. ولعل مثل هذه الاختلالات هي التي دفعت غير واحد من المهتمين بالشأن التربوي إلى التعبير عن عدم رضاهم عن الكتاب المدرسي في شكله الحالي وتقديم البدائل الممكنة، مثل الأستاذ أراق في سياق حديثه عن مدى ملاءمة الكتاب المدرسي الحالي. من الناحية الثقافية والقيمية، ينتهي إلى القول «إن جزءا كبيرا من مضامين هذه الكتب لا تتوفر فيها - على المستوى التربوي والثقافي - عناصر الملاءمة مع الشعائر التي حملها الإصلاح، والتي تراهن على جعل التلميذ في قلب الاهتمام والتفكير والفعل خلال العملية التربوية التكوينية، والوعي بتطلعات الأطفال وحاجاتهم البدنية والوجدانية وال نفسية والمعرفية والاجتماعية، ومنح الأفراد فرصة اكتساب القيم والمعارف والمهارات»⁷.

ليس قصدنا، ونحن نورد هذه الملاحظات، التنقيص من قيمة كتبنا المدرسية، أو الطعن في مصداقيتها، وإنما التنبيه إلى مواطن الخلل التي لم تتخلص منها كتبنا المدرسية، والتي تعرقل سير وتيرة الإصلاح. ولعل الإحساس بخطورة هذا الأمر، هو الذي دفع الأستاذ عبد الله ضيف إلى التساؤل: «هل هناك شفافية واضحة بين المؤلفين؟ لماذا تحدد مدة إعداد الكتاب المدرسي في وقت وجيز، أقل من ثلاثة أشهر، لماذا لا يفتح باب المنافسة لمدة طويلة (أكثر من سنة) بحثا عن الجودة وإتقاننا للكتاب المدرسي؟»⁸. وهو الأمر الذي حفز الدكتور جميل حمداوي إلى تقديم مجموعة من الحلول والبدائل؛ فهو يرى أن تحقيق الجودة التربوية لا يتأتى إلا بتوفير الكتب المدرسية في الوقت المناسب وبأثمان معقولة، وملاءمة كثافة المحتويات مع السياق الزمني للسنة الدراسية، والتخفيف من محتويات بعض الكتب المنتمية لمجال العلوم الطبيعية والفيزيائية والكيميائية والرياضيات والاجتماعيات والتربية الإسلامية... وتغيير المقررات الدراسية بما يتلاءم والأوضاع الاجتماعية والاقتصادية والثقافية لمواكبة المستجدات العلمية والتقنية. ولا بد أيضا أن تتأسس الكتب المدرسية على معايير الحداثة والمعاصرة وجودة المحتويات والشكل، مع توحيد اللجان التي تضع الكتب المدرسية، وإعطاء الأستاذ حرية اختيار كتاب المقرر المناسب ومراعاة مستوى الفئة المستهدفة، وتنوع المصادر في إعداد المادة المعرفية لإنجاح العملية البيداغوجية داخل الفصل الدراسي، وأن تكون محتويات الكتب المدرسية تتسم بالحيوية والديناميكية، مستجيبة لواقع التلميذ ومحيطه الاجتماعي⁹.

7- سعيد أراق، الكتاب المدرسي، مرجع سابق ص: 113.

8- عبد الله ضيف، من الأهداف إلى الكفايات: دراسة تحليلية في طرق ومناهج التدريس - مطبوعات الهلال. وجدة، ط 5: 2006، ص: 28 - 29.

9- جميل حمداوي، من قضايا التربية والتعليم، سلسلة شرفات 19، منشورات الزمن، طبعة 2006، ص: 150 - 151.

3- أهمية الكتاب المدرسي ضمن الوسائط التعليمية الأخرى

مما لا شك فيه أن الكتاب المدرسي يكتسي أهمية بالغة في المنهاج التربوي، نظرا لما يسهم به في بلورة الرؤية التعليمية التي تحددها الفلسفة التربوية للمجتمع، ولما يسهم به من غايات وأغراض تعليمية، تتجلى في القيم والمثل والأفكار المراد نقلها إلى المتعلم. وهو لم يعد أداة يتقاسمها الأستاذ والتلميذ فقط، بل أصبح رؤية اجتماعية وسياسية¹⁰. ولا يخفى ما للكتاب من أثر في العملية التعليمية - التعلمية؛ فهو المنهل الذي يغرف منه التلميذ معارفه، والوسيلة الفاعلة في تشكيل أفكاره وميوله وسلوكه، وهو خير معين يسترشد به الأستاذ على أداء عمله، وإعداد دروسه والتخطيط لها. فلا يمكن للمدرسة أن تؤدي وظيفتها التربوية من غير كتاب مدرسي، ومن غير تعليم لاستعمال الكتاب.

والواقع أن الكتاب المدرسي مهما كانت جودته وإتقانه، لا يمكن أن يحل محل الأستاذ في العملية التعليمية، كما أن فعاليته تبقى رهينة بمدى توظيفه الجيد، وذلك بالتعرف عليه وعلى توجيهاته، وطريقة تبويبه، وتنفيذ مفرداته، وإرشاد التلاميذ لاستعماله استعمالا سليما، بقراءته قراءة سابقة على الدرس، وتحديد الأنشطة المستهدفة، والاهتمام بالمعينات الواردة فيه كالصور والأمثلة والأسئلة... وتشجيعهم على التعليق، ورفض الإجابات السطحية، أو التردد الحرفي لعبارة الكتاب. كما ينبغي استغلال ما فيه في قيم واتجاهات والعمل على تثبيتها وترسيخها بين جماعة الفصل، والاستعانة بمصادر المعرفة الأخرى لتدارك ما قد يعتريه من نقص وقصور.

وليس معنى هذا أنه ليس للأستاذ الحق في التصرف في الكتاب المدرسي، بل خولت له هذه الإمكانية حسب مقتضى الحال، وفوضت له سلطة تقديرية يعتصم بحبلها كلما اقتضت الضرورة ذلك؛ كأن يباشره بالحذف أو بالإضافة أو بالبسط والتوسع، وفق حاجات التلاميذ وميولهم ووضعياتهم التعليمية - التعلمية، وحسب ما يراه مفيدا لها، عونا على إنجاحها. كما يضطر أحيانا - للتعطية على بعض النقص والقصور الذي يشكو منه الكتاب المدرسي - إلى الاستنجاد ببعض الأدوات التكميلية التي تعرف بين المهتمين بالشأن التربوي بالوسائل أو الوسائط التعليمية.

4- تعريف الوسائط التعليمية

هناك اتجاهان في تعريف الوسائط التعليمية: يذهب الاتجاه الأول إلى جعل الوسائط التعليمية، كل الأشخاص والأحداث والأدوات التي من شأنها أن توفر الظروف المواتية لجعل المتعلم يكتسب المعارف والمهارات والمواقف، بينما يحصرها الاتجاه الثاني في الأدوات الكهروميكانيكية التي تستغل كوسيط بين المتعلم والمادة المدروسة. وبالجمله هي كل الوسائل السمعية والبصرية (التسجيلات الصوتية - الأفلام - السبورة - الصور الفوتوغرافية - الخرائط - اللوحات والبطاقات - النصوص التاريخية - الخطب الرسمية - الخطاطات والرسوم البيانية - المتاحف والمعارض - الرحلات)...، التي يستعين بها المدرس لتحسين عملية التعليم والتعلم،

10- التوجيهات التربوية والبرامج الخاصة بتدريس مادة اللغة العربية بسلك التعليم الثانوي التأهيلي - الكتابة العامة - مديرية المناهج - الرباط - نونبر 2007، ص: 9.

مفاتيح التربية والتكوين

ولجعل المتعلم يكتسب المعارف والمهارات والمواقف والقيم. وقد أطلقت على هذه الوسائط أسماء متعددة منها: وسائل الإيضاح والوسائل البصرية والوسائل السمعية والوسائل المعينة والوسائل التعليمية وتكنولوجيا التعليم. وهي تعني جميع الطرق والأدوات والأجهزة والتنظيمات المستخدمة في نظام تعليمي بغرض تحقيق أهداف تعليمية محددة.

5- أهمية الوسائط التعليمية وأنواعها

تكتسي الوسائط التعليمية أهمية كبرى في العملية التعليمية - التعلمية؛ وهي الأهمية التي نبه إليها الميثاق الوطني للتربية والتكوين من خلال إدماج التكنولوجيا الجديدة للإعلام والتواصل في الواقع المدرسي¹¹. فهي، من جهة، تساعد المتعلم على تنمية ملاحظته وصقل مهاراته وذوقه وسلوكه، وتولد في نفسه الرغبة في البحث وتحقيق الذات. ومن جهة أخرى، تساعد المدرس على أداء مهمته التعليمية، وتساهم في التحسين من جودة التعليم والتعلم وتجعل الدرس أكثر تشويقاً وإثارة بالتغلب على نمطيته وكسر رتابته، ومن ثم إضفاء طابع الحيوية والنشاط على الدرس واستقطاب أكبر عدد من التلاميذ وإشراكهم في بناء الدرس.

سبقت الإشارة إلى تعدد هذه الوسائط وتنوعها، لذا سأقتصر على ذكر بعضها لأهميتها، ويأتي في مقدمتها:

أ. السبورة

وهي أداة تعليمية لا تخلو منها حجرة دراسية، وهي ليست وسيلة بصرية فحسب، بل أداة يمكن توظيفها من عدة أوجه كالكتابة والرسم. وهي تقوم بدور الوسيط بين المتعلم والمدرس، إذ بواسطتها يتم توضيح بعض الحقائق والأفكار، اعتماداً على الرسوم البيانية والتوضيحية؛ كما تساعد على عرض الكلمات والتعاريف والملخصات. على أن الاستخدام الجيد للسبورة يكون رهيناً بنظافتها والتموقع الجيد لمستعملها، بحيث يكون في مكان مواجه للتلاميذ أثناء عملية الشرح.

ب - الصورة الفوتوغرافية

أصبحت الصورة تحتل مكاناً متميزاً ضمن الوسائط البيداغوجية المستعملة في المؤسسات التعليمية على اختلاف مستوياتها، نظراً لدورها التواصلي في عملية التعليم والتعلم بحيث أصبحت تطفئ على المطبوع. ولعل هذه الهيمنة هي التي دفعت الأستاذ محمد عليوش إلى التنبيه إلى خطورة تغليب كفة الصورة على كفة الكتاب قائلاً: «فالتخلي عن النص المقروء قد يقتل فينا شيئاً الرغبة في التحليل والتركيب والاستنتاج ويجعلنا نكتفي بالإلقاء في حساب ملكة التجريد والتأمل والتفكير الصوري (الاستهلاك السلبي للصورة)»¹². ويمكن الحديث في هذا السياق عن ثلاثة أنماط من الصور البيداغوجية، هي: الصور الفنية وصور التسلية والصور الإخبارية.

11- الميثاق الوطني للتربية والتكوين، مرجع سابق، ص: 54.

12- محمد عليوش، التربية والتعليم من أجل التنمية، مطبعة النجاح، البيضاء، ط. 2007، 1، ص: 61.

ج - وظائف الصورة

تؤدي الصورة عدة وظائف معرفية من أهمها : الوظيفة التجسيدية والوظيفة الإيضاحية والوظيفة التنظيمية والوظيفة التوجيهية والوظيفة التحويلية¹³.

د - المكتبة المدرسية

تعتبر المكتبة المدرسية من الوسائل التعليمية الهامة نظرا لدورها الوظيفي التي تقوم به في المنظومة التربوية، وفي بناء مجتمع العلم والمعرفة.

تنهض المكتبة المدرسية بوظائف متعددة ؛ فهي تعتبر وسيلة لتشجيع التلاميذ على القراءة والبحث والتنقيب، وتمدهم بالمعارف والمعلومات المكملة لما يدرسونه في الفصل، كما أنها تروي فضولهم المعرفي وتلبي حاجاتهم ورغباتهم الذاتية، « وتعمل على تطوير عمليات التعليم والتعلم والتكوين، وإكساب التلميذ عاداتي القراءة والكتابة. فالمكتبة لم تعد «أكسيسوار» في العملية التربوية - التعليمية، بل أصبحت عنصرا كامل العضوية في عملية التنشئة الاجتماعية، وطرفا فاعلا في خدمة أهداف المدرسة والمجتمع»¹⁴، وتغرس في التلميذ بذور الانفتاح وقبول الاختلاف، وتضخ في عقله دماء جديدة تجعله محصنا ضد عوامل الهدم والتخريب.

13- عبد الجليل أميم، الوظيفة البيداغوجية للصورة في الكتاب المدرسي، مجلة علوم التربية، ع : 40، ماي 2009، ص : 74 - 75 .

14- محمد باداج المكتبة المدرسية : مقارنة أولية في تحديد بعدها الوظيفي ومقتضيات التفعيل، مجلة علوم التربية، ع : 34، يونيو 2007، ص : 125.